

أدوات التعريب الموابك ووسائله من منظور وحدوي

بقلم: الدكتور عفيف دمشقية

مقدمة

لما كان كل إنسان ينتمي بحكم ولادته وقدره المرسوم إلى لغة من اللغات ، وكانت هذه اللغة هي التي ستطبع أفكاره وعواطفه مدى حياته ، فإنها هي التي ستتيح له بالتالي أن يتواصل ويتفاهم مع اناس آخرين يشكلون معه المجتمع اللغوي الخاص بهم . ذلك ان اللغة في أي مجتمع لغوي تمثل « راموزا » في مكنة كل فرد من أفراد هذا المجتمع فك رموزه وفهم دلالاتها تبعا لنوع من « عقد اجتماعي » لا يدري متى وكيف تم عقده . كما ان الأصرة التي تشد هؤلاء الافراد بعضهم إلى بعض تتمثل في امتلاكهم جميعا إمكانات التعبير ذاتها ، وفي أن ما يستخدمه الفرد الواحد وسائر أفراد المجموعة من كلام يوظف في أذهان كل الأطراف الإصدااء عينها .

و « المجتمع اللغوي » اهم اشكال المجتمعات لانه يشرع الابواب لبلوغ مضامير الفكر والثقافة ، ويتلذذاً بمفاتيح الممتلكات الفكرية المستودعة في الأعمال المكتوبة . ومهما تعددت صيغ المجتمع بتعدد العوامل العرقية او السياسية او المنفعية ، فان العامل اللغوي

يبقى انجع الوسائل واكدها لخلق المجتمع المتناسك الذي يحسن فيه كل فرد بالانتماء والولاء بشكل عنوي، وبلا دافع من منفعة او مصلحة . ذلك لان « المجتمع اللغوي » اقدم اشكال المجتمعات واشدها أصالة وعزاقة . وكما قال غونتررايسن فان : « اللغة روح المجتمع الحقيقية ، وهي التي تؤلف عالما قائما بذاته ، ومحققا وجوده على هذا الاساس . فالمجتمع هو « نحن » التي تسمى ذاتها في اللغة وبها تتواصل » (1) وللباحث ان يزعم ان الامة العربية تؤلف من المحيط الى الخليج ، مجتمعا لغويا قائما بذاته ، اذا اخذ في الاعتبار ان اساس اللحمة في هذا المجتمع هو العربية النموذجية المشتركة (النصصي) التي هي « الراموز » المشار اليه اعلاه . لكن في مقدوره كذلك الادعاء بأن هناك « مجتمعات لغوية عربية » لا مجتمعا واحدا ، بالنظر الى شتى « اللهجات » المستخدمة في اقطار الوطن العربي ، لا لان هذه اللهجات لا تبت الى « الراموز » المشترك بسبب ، وانما لان الرموز المستخدمة في كل قطر تتنوع وتختلف تبعا لعوامل أهمها :

1 - المفاضلة النابعة عن ذوق خاص بين مفردة

وأخرى للتعبير عن الأمر الواحد ، كما هي الحال في « الوقت » و « الحين » و « الساعة » للدلالة على اللحظة الراهنة .

2 - التحريف الصياغي أو الصوتي اللاحق بالمفردات تبعاً لقانون الاختصار الناتج عن الرغبة في اختزال الزمن من جهة ، وتشبهاً مع « الجهد الأقل » من جهة أخرى ، أو تبعاً لقانون تعاقب الحروف وتبادلها ، كما في مختلف الصيغ المستعملة للدلالة على اللحظة الراهنة : « هلق » (ينطق القاف قافاً حيناً ، وهيرة حيناً آخر) ، و « هلقيت » ، و « دلوقت » (ينطق القاف قافاً حيناً ، وجيهاً قاهرية مع مداها مدة كسر حيناً آخر) ، و « الحين » ، و « هسة » (بالوقف على التاء المربوطة هاء) ، و « إته » (يقبل الهاء همزة ولفظ التاء المربوطة ياء مسالة) .. الخ .

3 - استخدام المفردات المستعارة أو الدخيلة من اللغات التي قدر للعرب في شتى أقطارهم الاحتكاك بها قديماً أو حديثاً كالفارسية ، والتركية ، والإيطالية ، والفرنسية ، والانكليزية ، والتي شاعت في الاستعمال للدلالة على المدلول الواحد ، كـ « الطاولة » ، و « التريزة » ، و « الميز » ، و « السكيلة » الخ .. لتسمية المنضدة أو المائدة .

وإذا كان من غير المستطاع الوقوف في وجه « اللهجات » ، لأن ذلك من قبيل السباحة عكس التيار ، أو محاولة القضاء - وهي محاولة يائسة إن لم تكن مستحيلة - على طبيعة الأشياء ، فلا أقل من العمل الدائب والسعي المتواصل لتنشيط « الراموز » المشترك تسهيلاً لتواصل أفراد الأمة العربية فيما بينهم ، وشحذ أهباسهم بالانتماء والولاء لمجتمع لغوي واحد ، لأنه امتن أشكال المجتمعات كما رأينا آنفاً . ولعل من بين الوسائل والأدوات الغائبة عن التمريب ليصبح مواكبا لمطالبات العصر والدور الذي يمكن أن يؤديه في دعم الوحدة العربية » :

أولاً : أدب الأطفال والفتيان :

درجت الامم الراقية على اعارة أطفالها وفتياتها ببلغ الاهتمام لانهم عماد الأمة والدم الكفيل بتجديد حياتها الى مالا نهاية . وكان لظهور علم النفس بعامة ، وعلم نفس الطفل بخاصة ، اثره الكبير في توجيه انظار الكتاب والشعراء الى ضرورة التنبيه لـ « الكائن

الصغير » والكتابة عنه وله ، لما للادب والمطالعة من اهمية في نموه العقلي والخلقي والانفعالي والابداعي والاجتماعي .

وكان طبيعياً أن يطلع العرب في نهضتهم الجديدة على منجزات تلك الامم في عالم الطفولة ، وان يحاولوا اقتفاء خطاها في هذه السبيل ، وان يظهر في بعض اقطار العروبة « ادب اطفال » يتفلوت في جودته تناوتا شديداً لغلبة التصنع عليه حيناً ، وسيطرة اسلوب الراشدين ولغتهم والفاظهم احياناً .

واذ كانت الطفولة العربية تحتاج منا الى اعداد توييم يؤهلها لدخول عالم الراشدين ، ويهيئها لرسم مستقبل الأمة التي تنتهي اليها ، فقد كان لزاماً علينا ، نحن المتطلعين الى رص صفوف هذه الأمة بكل ما من شأنه ترسيخ وحدتها القومية ، أن نبذل الغالي والرخيص لفهم طبيعة الناشئة ، ومراحل نموها ، والبيئة التي تعيش وتترعرع فيها ، توصلا الى خلق أدب يساعد على النضج من ناحية ، وعلى تعميق شعورها بالانتماء والولاء للعروبة من ناحية ثانية . ويقودنا هذا الى جيلة أمور لعل أكثرها الحاحاً الأمور التالية :

1 - أن تردف جهود المهتمين اهتماماً صادقاً (بعيداً عن التطلع الى أي كسب أو منفعة تجارية) بأدب الاطفال في الوطن العربي بجهود خيرة أخرى هدفها القضاء على « تجار ادب الطفولة » الذين لا همّ لهم سوى تحويل هذه الطفولة الى « بقرة حلب » . ولعمري فإن اقوم السبل لتوفير مثل هذا المناخ الصحي لعالم الطفولة العربية هو خلق فريق عمل من المربين الاماضل الذين وجدوا فردوسهم المفقود في هذا العالم الساحر العجيب ، واكتسبوا الكثير من الدراية بشؤونهم ، والمعرفة بتطلعات الناشئة ، والخبرة بقواميسها اللغوية ، ومن علماء نفس الطفل الذين وقفوا على اسرار حياته وعالمه نظرياً وعملياً ، وياتوا قادرين على توفير اطيب الاجواء الصحية له نفسانياً وعقلياً ومسلحياً ، ومن علماء الاجتماع الذين درسوا مجتمع الاطفال دراسة ميدانية الى جانب دراسته الدراسة النظرية ، اهلهم علمهم وخبرتهم لتحديد افضل نماذجهم من الناحيتين الخلقية والاجتماعية ، ومن القصاص الذين مارسوا الكتابة للاطفال والفتيان ، وزودتهم بممارستهم بالقدرة على اجتذابهم الى نتائجهم وتنقيتهم الثقافة التي تعدهم لمواجهة المستقبل مسلحين بكل ما يحتاجون اليه من وعي ولادراك

مشكلاتهم الإنسانية والاجتماعية والقومية والسبيل الآيلة الى معالجتها وحلها ، ومن اللغويين - ولا سيما المهتمين بلغة الطفل - العارفين بخصائص العربية وأسرارها ، القادرين على ايجاد حوافظ الناشئة بأصنى أساليب التعبير ، وأكثرها قدرة على صوغ الفكر ، وأبعدها عن متهافتات التحذلق والتأنق الفارغ ، العاملين بصدق على تضيق الشقة بين الفصحى الشاملة أرجاء الوطن العربي ، والعاميات المحلية المحدودة الرقعة ، بتنصيح أساليب هذه الأخيرة ، وتبسيط أساليب الأولى بشكل علمي دقيق يأخذ في الحسبان كل العوامل المساعدة على الصعيدين التفساسي والاجتماعي .

2 - لما كان العرب يتطلعون الى جمع شملهم وتوحيد كلمتهم فان أول المعالم على طريق الوحدة هو تنشئة أطفالهم على هذا الأمر القومي الخطير . ولا بد لبلوغ هذا الهدف من الخروج بالناشئة العربية من حدود وطنها الأصغر (القطر) بل الجزء من القطر الى رحاب الوطن الأكبر من المحيط الى الخليج . ولا يمكن أن يتم لنا ذلك الا بتعريفها بهذا الوطن من أقصاه الى أقصاه ، جغرافيا ، مع التركيز على دور المؤثرات المناخية في التباين بالزري والسكن وبعض التقاليد والعادات ، وعلى الموارد الاقتصادية المختلفة باختلاف المناطق العربية ، ودور هذه الموارد في نمو الوطن العربي وازدهاره اذا أحسن العرب استقلالها بأنفسهم واقتسام خيراتها فيما بينهم ، وبشريا ، مع الإلحاح على الشيم والمناقب التي تؤلف القواسم المشتركة بين أبناء المروية كانه ، وتراثا شعبيا ، مع بيان نقاط التلاقى العائدة الى اشتراك العرب في بعض هذا التراث ، ونقاط التباين الناجمة عن المؤثرات البيئية البحث .

3 - يقرر علماء النفس ان من تراوح أعمارهم بين الثامنة والثالثة عشرة يولعون بالمغامرة والبطولة . وهكذا يتبجح المجال رحبا امام الفريق الساعى الى اسعاد الطقولة العربية وتوثيق عرى الوحدة بين أفرادها لبلوغ الوحدة الكبرى والاستمرار في تعزيزها حين يشبون عن الطوق ، لان يعرفوهم بأبطالهم القوميين ، وبمشاهير رجال المروية ونسائهم قديما وحديثا ، بوصفهم « أجدادا » عربا ، لا تنبعا لانتمائهم الى أحد أقطار المروية او الى أحد أقاليم الوطن العربي . ولا ندعى ان هذا الاتجاه جديد على الأمة العربية ، فأكثر الأطفال والفتيان العرب تعرفوا ، عبر

الكتب المقررة للتدريس ، الى أبطال وبطلات عظام من التاريخ العربي وأحلوهم من نفوسهم منزلة الأكارب والاعتزاز ، فباتوا جزءا لا يتجزأ منهم . والذي نتطلع اليه اليوم هو أن يحل الى جانب أولئك أبطال وبطلات من التاريخ العربي الحديث ، فلا يكون أمثال عمر المختار ، وجيلة بوخيرد ، وجيلة بوياسا ، أبطالاً من « المغرب العربي » ، ولا سعد زغلول ، وأحمد عرابي ، وجبال عبد الناصر ، أبطالاً من « مصر » ولا يوسف العظمة ، وإبراهيم هنانو ، وجول جمال ، أبطالاً من « سوريا » ، ولا طانيوس شاهين ، وعمر حمد ، وكمال جنبلاط ، أبطالاً من « لبنان » ، ولا حسن سلامة ، وبسام الشكعة ، ودلال المغربي ، أبطالاً من « فلسطين » ، ولا ... ولا ... ، وإنما يغدو هؤلاء وغيرهم من لغذاء الأمة العربية رجالا ونساء ، ملكا للأمة جمعاء ، يعرفهم أطفالها ، تاصيهم ودانهم ، ويعايشونهم ، ويفخرون بهم ويتفاخرون ، ويحتذون خطاهم في الجهاد والتضحية والفداء والشهادة لأعلاء شأن الأمة بأسرها .

4 - انه لما كانت اشكال البيئة العربية متعددة ، فقد كان من الطبيعي ان تعدد الاسماء بتعدد المسيمات ، كما انه لما كانت الاقطار العربية قد عرفت تأثيرات وتداخلات لغوية مختلفة ، بفعل الجوار والتبادل التجاري ، او بفعل الانتداب والاستعمار ، فقد أصبح للمسمى الواحد أسماء تختلف من قطر الى آخر . ومن شأن ذلك بالطبع أن يخل بنظام « الرموز » المشترك ، وان يؤدي بالتالى الى انقطاع التواصل بين أبناء المروية في أكثر الأحيان اذا لجا كل منهم الى رموزه المحلي . فالمعروف ان التواصل لا يمكن أن يتم بين شخصين الا اذا كانا متفقين سلفا على العلاقة القائمة بين الدال والمدلول عليه ، والمتمثلة في « الرموز » المتواضع عليه منهما . كما انه من بديهيات الأمور ان يستحيل ارتسام صورة منضدة مثلا في مخيلة طفل عربي من لبنان اذا سمع طفلا عربيا من مصر يقول « تريزة » ، وآخر من العراق او الخليج يقول « ميز » ، لانه لا يعرفها الا باسمها المألوف في قطره : « طاولة » . وان يستحيل تصور « البطيخة » مثلا اذا سميت « دلاحة » كما يطلق عليها في معظم اقطار المغرب العربي ، او « رقية » (بتحويل القاف الى جيم قاهرية) ، كما تسمى في العراق وبعض بلدان الخليج العربي .

ولا شك ان تعريف الأطفال العرب بمختلف

الى جانب رفع مستواه الفكرى يقرب تعبيره درجات من مستوى التعبير الفصحى . وعلى العاملين في سبيل التعريب وشد اواصر العروبة وتوحيد ابنائها الا يدعوا وسيلة لاقتناع اولى الشان في كل جزء من اجزاء الوطن العربى بضرورة تعميم التعليم وفرضه حتى المرحلة المتوسطة (الاعدادية) على اقل تقدير . فلا يعقل ان يرسخ الشعور بالانتماء الى الوطن الاكبر والولاء له الا اذا تعهدناه منذ نعومة الاظفار . ولا يكون هذا التعهد الا بالتعليم والتربية . ولعل تشرذم ابناء العروبة ما كان ليحدث لو لم تستمت قوى التسلط الغربية في تجهيلهم ، بسلبهم حقا من اقدس حقوق الانسان ، حق التعلم ، وتشجيع اللهجات المحلية ، علاوة على المحاولات الباغية لسرقة اللسان العربى من ابنائه في بعض اجزاء الوطن (2) .

ثانيا - الاعلام العربى :

بات الاعلام بشتى فروعه كما هو معروف من اقوى الدعائم لتشكيل الفكر القومى ، وتعميق الشعور بالولاء للامة والوطن ، الى جانب انه من اهم العوامل على نشر الثقافة والمعرفة . ووسيلة من وسائل التسلية البريئة ونشدان راحة النفس والاعصاب من عناء العمل وظروف الحياة الحديثة . ويشمل هذا الاعلام ، كما هو سائد ، الاذاعة والتلفزيون والسينما والمسرح ، الى جانب الصحافة . ولا تشكل هذه الاخيرة بالنسبة الى الوحدة الثنائية واللغوية عقبة تذكر ، لاختيارها اللغة النموذجية المشتركة ، مع تباين طفيف في بعض الصيغ والمبارات من قطر الى آخر ، ولاعتيادها ، منذ اطلالتها على الوطن العربى مع فجر النهضة الحديثة . اسهل الاساليب واقرىبا الى متناول اعرض الجباهير العربية . كما ان الاذاعات العربية تواضعت على اخراج معظم برامجها بالنصحي المتداولة اليوم بين الناس ، اى اللغة التى يمكن ان يطلق عليها بحق اسم « العربية المعاصرة » ، التى اثبتت قدرتها على الاستجابة لمطالب العصر ، وطواعيتها في تلبية كل ابداع مستجد . ولا يحق لاحد بالطبع ان يطالب هذه الاذاعات بالتخلى عن بعض برامجها المذاعة باللهجة المحكية المحلية ، لان مثل هذه المطالبة تعنى القضاء على الازجال والاغاني والاهازيج الشعبية ، وعلى صور من الفلكلور لا يجوز طمسها بحال من الاحوال ، بل يجب على العكس

اشكال البيئة في الوطن العربى الاكبر ، والحرص على اختيار ابسط المفردات وانصحها . لهذا التعريف وما يتفرع عنه من تعريفات ببحوثيات كل بيئة ، عن طريق ربط الاشياء باسمائها في اللغة النموذجية المشتركة ، من شأنه ان ينتقل بدلالة الاسماء على المسيمات من نطاق « الخاص » الى المحلى والائلى الذى سيبقى قائما بطبيعة الحال تبعا لمنطق الامور - الى رحاب « المشترك » الذى سيؤلف فيها بعد « الرموز » الشامل المساعد على تسهيل التواصل بين ابناء الامة قاطبة ، والقضاء من ثم على الحواجز اللغوية التى يحس بها العربى ، طفلا ، او يانعا ، او راشدا ، بالغربة تجاه شقيقه العربى اذا ما لجا كل منها الى رموزه وقاموسه المحليين .

5 - على العاملين في سبيل اعداد النائشة العربية اعدادا وحدويا الا يقصروا جهودهم وبحوثهم على الادب المكتوب ، من قصص ومجلات وموسوعات ورسوم مرفقة بالكلام ، بل عليهم ان يتجاوزوا ذلك الى كل ما افرزته التكنولوجيا الحديثة في حقل الوسائل السمعية - البصرية ، من شرائح تعكس على شاشة خاصة ويعلق على ما تقدمه من مشاهد وصور . واسطوانات واشرطة مسجل عليها الاغاني والاناشيد ، واخرى باشرطة « الفيديو » . الخ . ولقد كنا في لبنان نحفظ ونحن صغار ، كما كان يحفظ اترابنا في سوريا وفلسطين ، اناشيد طالما نفحتنا بعزة قومية اصيلة ، لعل اشدّها توافقا مع المقام الذى نحن فيه الآن نشيد مظلّمه :

بلاد العرب اوطانى
من الشام لبفدان
ومن نجد الى يمن
الى مصر فنتطوان
فلا حد يباعدنا
ولا دين يفرقنا
لسان الضاد يجمعنا
بفسان وعدنان . الخ

وذلك في زمن لم تكن فيه التكنولوجيا قد بلغت بما بلغت ، فكيف باطفالنا اليوم - والوسائل التى ذكرناها كثيرة ، ونعمها جلية - اذا عمنا عليهم مثل هذه الاناشيد ، وغيرها من صنوف الابداع الفنى ، مدايمك اولى في صرح الوحدة الكبرى ؟

6 - التعليم شرط اساسى لاقتبال الطفل على المطالعة والاستفادة من مختلف وسائل المعرفة . وهو

تشجيعها وتشريطها ، شريطة عدم طغيانها على سائر اشكال الفنتاج الفكرى العربى .

وجل ما يطالب به الاذاعيون العرب فى هذا المقام ان تتضافر جهودهم لانتاج برامج تصور بعض جوانب الحياة فى شتى اقطار العروبة ، والوانا من الفلكلور المحلى ، بلغة فصلى سهلة ، يتم تبادلها وتداولها بين الاذاعات العربية المختلفة ، فيتسنى لسكان القطر الذين لا تبلغهم امواج اذاعة منها ان يتعرفوا الى احوال اخوانهم فى القطر الذى تنتمى اليه هذه الاذاعة او تلك . وقل الامر نفسه فى البرامج التلفزيونية التى باتت تستغرق جزءا لا يستهان به من حياة الانسان اليومية .

واما السينما والمسرح العربيان فشأنهما مختلف تماما عن شأن سائر فروع الاعلام . ذلك ان نشأتها فى الوطن العربى — وعلى الاخص فى القطر المصرى — قد تمت فى زمن كانت فيه الامية هى السائدة ، بينما كان العلم وفقا على قلة قليلة من الناس . ولم يكن فى الامكان بالطبع المغامرة بنتاج سينمائى مفروض فيه ان يتوجه الى اوسع الجماهير ، بلغة لا تتداولها هذه الجماهير فى حياتها اليومية والعامية ، وذلك لامور ثل اهمها العامل الاقتصادى . فالفترض فى الشريط السينمائى ان يعود بالربح والفائدة على المنتج والمخرج وصاحب الصالة ، او عدم تعرضهم للخسارة على الاقل . وبديهي ان بلوغ هذا الهدف لا يتأتى الا عن طريق تأمين دخل محترم من شبابيك التذاكر بصالات العرض ، اى باقتبال اكبر عدد من المشاهدين . وليس هؤلاء بالطبع سوى عامة الناس ، غير المتعلمين على الغلب ، الذين لا يمكنهم ان يتفاعلوا ببسر ، وبشكل عفوى ، مع احداث من الحياة ، ونماذج من البشر يتحدثون بلغة تكاد تكون غريبة عنهم ، ولا سيما اذا اُمنعت فى استخدام الاساليب السائدة فى تلك الايام . وهى اقرب ما تكون الى المحنطات .

وما يقال عن السينما ينطبق الى حد كبير على المسرح . فكلهما يفترضان فى المشاهد ان يعيش ما يقدم اليه من صور ووقائع وكأنه احد ابطال الشريط السينمائى او المسرحية . ومن الطبيعى جدا الا يتيسر له ذلك عبر لغة كثيرا ما يقف عاجزا عن حل رموزها لانه لم يتلق قسطا من التعليم يعينه على ذلك . واذا حدث ان بعض اقطار العربية يفتح صدره اليوم للسينما والمسرح المنتجين باللهجة المصرية (القاهرة) فى اغلب الاحيان) ، فذلك ناتج عن غزوها اجزاء

من الوطن العربى فى زمن مبكر ، واعتياد الناس رموز تلك اللهجة واستقرارها فى حوائظهم بالحدس والربط بينها وبين الحركات والانفعال المرافقة لها بادى الامر ، ثم عن طريق اتضاح دلالاتها اكثر فاكثر بفعل التكرار . نقول ذلك مع التاكيد بان عددا من رموز اللهجة المصرية يقيم فى عداد الطلسمات بالنسبة الى غير ابناء القطر المصرى ، حتى اولئك الذين طالت الفهم للسينما والمسرح المصريين .

واليوم ، وبعد ان زادت نسبة المتعلمين فى الوطن العربى (نرجو ان يكون اليوم الذى لا يبقى فيه امي واحد على وجه الارض العربية قريبا) ، بات من الملح البحث عن عربية مشتركة للسينما والمسرح . ولكيلا يتبادر الى الازهان ان هذه « العربية » المطلوبة لغة جديدة ، او مصطنعة ، نساخ الى القول انها ليست شيئا من ذلك على الاطلاق ، وانما اذ نتقناها فمستندين الى اكثر من دعامة من دعائم تراثنا الذى نعتز به .

نقد توارثنا عن الاجداد قولهم : « لكل مقام مقال » ، وقرانا فى بعض كتب الادب واللغة والبلاغة انه ليس المقصود بـ « الاعراب » — وهى ظاهرة لا يمكن لاحد تجاهلها ، او المطالبة بالغائها ، تحت اى ستار ، لانها جزء لا يتجزأ من اللغة التى ورثناها معربة كابرا عن كابر — ان يؤمن للمخاطب فهم مراد المتكلم بصورة عامة مطلقة ، كما يطيب لبعض النحاة ان يفعلوا ، وانما تأمين هذا الفهم فى المواضع التى يخشى معها اللبس . وهاهو ذا ابن الاثير — وهو من هو فى اللغة والبيان — يقول فى كتابه « المثل السائر » ان المتكلم لو قال للمخاطب : « ان تقوم اقوم » ، ولم يحذف « الواو » من الفعلين ، او قال : « جاء زيد راكب » ، ولم يثن « زيد » تنوين الرفع ، ولا « راكب » تنوين النصب ، او قال : « ما فى السماء قدر راحة سحاب » ، ولم يقم الاعراب فى اواخر الكلمات ، ولا سيما تنوين النصب فى « سحاب » ، لما استغلق المراد على المخاطب ، ولفهم القصد من الكلام . لكن المتكلم ان لم يقم الاعراب فى « زيد » بالرفع والنصب والجر ، وفى « احسن » بالبناء على الفتح وبالرفع ، فى الصيغ الثلاث : « ما احسن زيد » التى تدل اولها على نفي الاحسان عن زيد ، وثانيها على التعجب من حسنه ، والثالثة على التساؤل عن احسن ما فيه ، وقع اللبس ولم يتسن للمخاطب تمييز القصد .

وعليه نقول ان اللغة المطلوبة للسينما والمسرح
العربيين ، تأمينا لتواصل العرب وتلاقح أفكارهم
وتعرفهم بعضهم الى بعض ، ينبغي ان تتواءم فيها
المقومات التالية :

1 - ان « المقام » (في السينما والمسرح)
مقام تتفاعل مع أحداث الحياة اليومية يعيشها بشعر
مثلنا نشاطرهم أفراحهم وآلامهم ، وان « المثل »
المطلوب له يجب ان يتجنب الحذقة التي من شأنها
ان تقيم حاجزا بين المتكلم (الممثل) وبين المخاطب
(المشاهد) يمنع المشاركة الوجدانية ويقضى بالتالي
على الهدف المنشود من العرض السينمائي او المسرحي
وان يتحاشى كل لفظ غير مانوس ولا متداول في الوقت
الراهن ، وكل أسلوب لا يبت الى الواقع الحاضر
بصلة . المطلوب باختصار « مثل » يحاكي العاميات
الشائعة في الوطن العربي من حيث سهولتها
واستجابتها الفورية للمواقف الانفعالية ، مع ابتعاده
كل الابتعاد عن رثائتها وعجزها عن اداء الرسالة
الا الى نفر محدود من أبناء الامة .

2 - ان الاعتدال في اقامة الاعراب في اواخر
الكلمات - الا في المواضع التي تسهل فيها حركة
الاعراب النطق ، كما في الاضافة الى المعرفات بـ
« ال » والمفردات المبدوءة بهزة الوصل مثلا ، وهو
ما يعرف بـ « منع التقاء الساكنين » - من شأنه
المساعدة على رشاقة العبارة ، واختصار زمنها ،
وهما امران مطلوبان في المقام الذي نحن بصدد
مقام التفاعل الاتى البعيد عن كل كد للذهن في البحث
عن تسلسل الروابط اللغوية ، كما هي الحال في
الادب المكتوب ..

3 - يجب ان ينصب الحرص على اقامة الاعراب
داخل الكلمة للتمييز مثلا بين « اخرج » المعلوم
وصنوه المجهول ، و « ينزل » من الثلاثي وصنوه
من الرباعي ، و « مكرم » المبنى للفاعل والآخر المبنى
للمفعول الخ . نظرا لما لهذا الاعراب الداخلى من
اهمية في بيان المعاني المقصودة .

4 - يمكن ان تكون نبرة الملفوظ بديلا من
الاعراب الممثل في حركة آخر الكلمة . فما لا ريب فيه
انه لا مجال للبس بين « ما احسن زيد » التي للتعجب
من حسنه ، والاخرى التي هي للسؤال عن احسن
ما فيه ، اذا لفظت كل منهما كما ينبغي لها ان تلفظ .
ثم ان اللغة لا تعدم وسيلة للتعبير عن نفى الاحسان
عن زيد بغير صيغة « ما احسن زيد » ، وذلك بتقديم

« زيد » هذا الى اول العبارة ، او باختيار اداة للنفي
غير « ما » .

5 - ان من شأن الواقع الحى الناشئ عن
الحركات والمواقف المرافقة للكلام الدائر ان يختصر
كثيرا من عناصر العبارة ، ويختزل الصيغ الى ايسر
الاشكال (كلمة او كلمتان احيانا) . فالإشارة الى
شئ او مد اليد به يقوم بهما ممثل قبالة ممثل آخر
يعنيان « خذ » من غير حاجة الى لفظ الفعل . كما
ان نبرة الصوت المرافقة للفظ الكلمة الواحدة تدل
دلالات متنوعة ، وتغنى من جهة ثانية عن كلمات
اخرى كان يجب ان تلازمها لو كان المقام غير المقام .
وغنى عن البيان انه ينبغي ان تسبق مثل هذه
التجربة (التي نرجو مخلصين الا ينظر اليها بعين
الريبة ، والا تقابل بالانفعال والانكار المسبقة ، والتي
لا تتنافى في اعتقادنا ونقاء الفصحى وبقائها للغة
القوية الحية ما دمنا نحرص على تعليمها بالطرق
السليمة لغة قراءة وكتابة كاملة الاعراب ، مستقيمة
التركيب ، بل هي على العكس من ذلك تدعم الفصحى
وتشد ازرها لانتزاعها حيزا رحبا من النشاط الفكرى
والإبداعي من برائن اللهجات المحلية) ابحاث لغوية
رصينة تكتنه اسرار العربية وتقف على خصائصها
في موافقة مقتضى الحال ، مسترشدة بأراء أهل
الاختصاص في شتى الميادين النفسانية والفنية
والتقنية ، لتكامل الجهود ، وتؤتى التجربة اطيب
ثمار والاكل . ولا ريب ان مثل هذه الابحاث كفيلة
باحصاء كل صعوبة قد تخطر على بال ، وتعجز مثل
هذه العجالة عن وصف الحل الناجع لها ، وقبينة
بتدليل كل ما يعترض هذا الاقتراح من عتبات .

ثالثا - مشكلات اخرى :

لعل من تحصيل الحاصل القول ان الجهود
الرامية الى توحيد العرب بتوحيد لغتهم اكثر من ان
تحصى . كما ان الابحاث الدائرة في هذا الفلك اكثر
من ان يحاط بها في دراسة عجل كهذه الدراسة (3).
ولكن السمة الغالبة على ما يعرف بـ « التعريب »
هي محاولة الحد من غوضى المصطلحات العلمية
والتقنية الناجمة عن نقل العرب ما جد في العصر
الحديث ، وما يجد كل يوم بسرعة مذهلة ، من
مكتشفات ومفاهيم في حقل العلوم الصحيحة
والانسانية ، والعمل على توحيد هذه المصطلحات لخلق

لغة علمية عربية يستوى في فهم رموزها ودلالاتها القاصي والداني من أبناء العروبة . وتلك جهود مشكورة لعمر الحق أجزل الشكر . وإذا كنا نلفت الانتظار الى بعض المشكلات اللغوية بعيدا عن قضية « المصطلحات » ، فلاعتقادنا بمسائل الحاجة اليها مساسها الى الأبحاث الدائرة اليوم ، ولأنها في صميم « الوسائل التي تنقذ التعريب ليصبح مواكبا لمتطلبات العصر والدور الذي يمكن أن يؤديه في دعم الوحدة العربية » ، كما هو ملحوظ في جردة الأبحاث المطلوبة في هذه الندوة .

ولعلنا لا نذيع سرا إذا أكدنا أن المصطلح الجديد لا تكتب له الحياة إلا بالاستعمال والشيوع ، وأنه لكي يتم استعماله لا بد أن يتقبله المستعملون بقبول حسن . ولا يمكن أن يكون قبول ما لم يكن المصطلح محددا تحديدا دقيقا بثلاثة أمور رئيسية هي :

١ - الجذر الذي منه اشتق أو ارتجل ، والذي يتضمن الشحنة الدلالية الأساسية .

٢ - الصيغة التي سكبت فيها مادة الجذر . والتي تنتقل بالدلالة من المطلق العام الى المعين الخاص .

٣ - الزوائد التي قد تتعدى حدود الصيغة الملونة لتزويد الدلالة بقدر جديد من التخصيص . ولا يتيسر ذلك إلا إذا سبقته أبحاث تهدف الى تحقيق الأمور التالية :

1 - تحديد دلالة اللفاظ - ولا سيما في المجالات التي ثبتت الحاجة الى العناية الفائقة بها - بدراساتها دراسة علمية دقيقة ، تعضدها الوسائل التقنية والتكنولوجية الحديثة ، في مختلف سياقاتها اللغوية . فلا وجود للدلالة في المطلق ، ولا معنى للفظ في الفراغ ، وإنما يتحدد معناها ، أو معانيها وظلال تلك المعاني ، في أطوارها الطبيعي الممثل في سياق العبارة أولا ، ثم في سياق الموضوع العام الذي فيه استخدمت .

2 - الوقوف على ما تطور من الدلالات ، وما احتفظ منها باطاره الثابت كليا أو جزئيا ، بدراسة مختلف النصوص دراسة تاريخية تتناولها في شطائر زمنية تتقارب أو تتباعد تبعا لمنطلقات محددة تشكل عوامل تطور اجتماعي أو فكري أو سياسي .

3 - استغلال الأبحاث والدراسات المفكورة لوضع « معجم تاريخي » مؤيد بالشواهد والنصوص وشتى الاستعمالات عبر حقب زمنية معينة يأخذ بأيدي

طلاب العربية والمشتغلين بتشيئها واغنائها على كل الصعد ، ويساعدهم على اكتناه دقائق الدلالات ، ويبلغهم أهدافهم في إبقاء لغتهم القومية حية ونادرة على مسيرة حاجات العصر ، والاستجابة لكل إبداع ، باستخدام هذه اللغة استخداما صحيحا لا يترك مجالا لحيرة أو لاحساس بالتردد أو القصور أو العجز وتقومنا مشكلة المصطلح العلمي الى مشكلة

أخرى لها أكبر وأعمق ، وإن كانت تحتجب أو تكاد وراء الحاج الأولى وبروزها باستمرار تحت ضغط تسارع الاكتشافات العلمية ، واحساس العرب بضرورة اللحاق بركب الحضارة الإنسانية الشاملة ، غنيا مشكلة القول من لغة ، أو لفات ، لها خصائص التركيبية التي تختلف جزئيا أو كليا عن خصائص العربية ، والتي قد يؤدي عدم الوقوف عليها الى معضلات دلالية ، بل الى عكس الدلالة المرادة في بعض الأحيان . وقد حدث مثل هذا الأمر منذ مطلع النهضة الحديثة الأولى فتأثرت العربية بأساليب لا تمت الى أساليبها بسبب . ولا نعني بهذه الأساليب « التعبيرات المستعارة » من مثل (ذر الرماد في العيون) و (الاصطياد في الماء العكر) الخ - فهي من قبيل المقترضات بين الأمم التي بلغت مستويات متقاربة من الرقي الفكري والحضاري ، واتسعت لغاتها وورقت تبعاً لذلك ، وإنما نعني طرائق نظم الكلام التي تختلف من لغة الى لغة ، والتي ينفى الجهل بها الى خلل في بلوغ الرسالة الى المرسل اليه للاختلال « الرموز » المتواضع عليه تلقائيا بين أبناء اللغة الواحدة .

وإن المطالع اليوم للنجاح العربي في الحقول التي ذكرناها أننا يكاد يحس بالغربة ازاء « اللغة » التي بها كتب معظم هذا النتاج ، لا لجهله بالمصطلحات الجديدة وحسب ، وإنما للاختلال الذي أضرنا اليه أعلاه ، والذي يمثّل في نقل الصيغ الأجنبية بمعجزها وبجرها ، ويغض النظر عن مطابقتها أو عدم مطابقتها للصيغ العربية . وإذا كان للعلوم الصحيحة والمعادلات الرياضية والفيزيائية والكيميائية لغتها وأساليبها التي هي أقرب الى أساليب البرقيات ولغتها ، فإن العلوم الإنسانية تحتاج الى دراية بأسرار اللغة لا تقل عن الدراية المطلوبة في مجال الأدب نفسه . ولذا فإنه لا يكفي أن يكون الناهد للكتابة في فرع من فروع هذه العلوم باللغة العربية متضلعا من المادة التي تدور عليها دراسته ، بل ينبغي أن يكون قادرا على نقل دقائق هذه المادة بامانة تامة الى القارئ العربي .

2 - ما قد يكون أصاب الصيغ العربية على مر العصور من تطور ، هذا التطور الذي تكاد تطمس معالمه الدراسات النحوية التقليدية المتحدرة حول اجازة النحويين أو منهم صيغة من الصيغ ، أو ترجعهم بين الاجازة والمنع في ظاهرة من الظواهر التركيبية ، كالفصل مثلا بين المضاف والمضاف اليه بعنصر كلامي .

3 - الجملة العربية والمواضع التي لا يجوز فيها التصرف بطريقة نظم عناصرها ، لاخلال هذا التصرف بالسياق ، واعاقة الوقوف على المراد منه ، لتعثر الرسالة في الوصول الى المرسل اليه . والمقصود من ذلك كله تخاشي الاستعمالات الغريبة التي قد ترشح الى العربية بفعل النقل من اللغات الاجنبية ، أو بسلطان من اساليب تلك اللغات على المتعلم العربي يعلم من العلوم المكتوبة بها حين يطمح الى الكتابة في هذا العلم بلغته القومية التي يفترض فيها ان تبلغ الرسالة نفسها الى كل فرد من افراد الامة ، بغض النظر عن معرفته أو جهله باللغات الاخرى .

4 - المواضع التي يساعد التصرف فيها على تسريع وصول الرسالة الى جميع المرسل اليهم بالنسبة نفسها ، وتمكينهم بالتالي من التمتع بخيراتها ، وتوسيع دائرة معرفتهم وثقافتهم بشارها الشهية الجسدية .

ولا مرأى في ان هذه الامور وغيرها تساعد على التعريب والتوحيد اللغوي للذين نطمح جميعا لجعلها الخطوة الاولى في مسيرة الوحدة العربية الكبرى .

ولا تتوفر له هذه الامانة التي يحرص دون ريب على التحلي بها الا اذا كان يملك اولى ادواتها ، غنينا التعبير الصحيح الميسور فهمه لكل متعلم طامع في زيادة نفسه علما ومعرفه .

ولعل الطريق الاوحد لبلوغ هذا الهدف هو قيام أبحاث علمية دقيقة تتناول بالدرس والتحقيق خصائص العربية في ضوء « علم اساليب اللغة » القائم على مبادئ اساسيين :

1 - « الابلاغية » التي تتضمن كل ما يتجاوز حد الكلام الموضوعي والذهني ، وحدود نقل الوقائع والافكار ، باللجوء الى عوامل تعبيرية معينة ، منها ابراز عنصر من عناصر الكلام بالتقديم أو التأخير ، وتساقط العبارة ، وجرسها ، ونبرة الملفوظ ، واستخدام القيم العاطفية ، والاخرى التي تستدعي الى الذهن صورا معينة ، كالاستعارة من سجل ادبي خالد ، أو من الامثال السائرة ، أو من الادب الشعبي .

2 - الخيار الاسلوبى المتمثل في اباحة اللغة صيغتين أو أكثر للتعبير عن الفكرة الواحدة ، وتمكين المستعمل من انتقاء انسب تلك الصيغ لنقل فكرته الى المخاطب واشدها حفولا باللطائف والدقائق . ومن شأن هذه الدراسات ان تتيح الوقوف على عدة امور اهمها :

1 - احصاء القيم الابلاغية والاخرى المستدعية للصور داخل عنصر اسلوبى معين في حقب زمنية شتى (الصيغ البلاغية المتبعة مثلا في الدراسات الاسلوبية التقليدية)

هوامش البحث :

- (*) بحث التي في ندوة « التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربى والوحدة العربية » التي نظمتها (مركز دراسات الوحدة العربية) في تونس ، 23 - 26 تشرين الثانى (نوفمبر) 1981 .
- (1) استقننا كثيرا من عناصر هذه الفترة من كتاب : س . أو مان وف . ف . فارتيرغ ، مشكلات الاسفنية وطرقها (باريس : 1969) .
- (2) استقننا بعض الآراء الواردة في هذه الفترة من البحث من دراسة : عبد الرزاق جعفر ، ادب الاطفال (دمشق : منشورات اتحاد الكتاب العرب ، 1979) .
- (3) من المفيد جدا في هذا السند الرجوع الى دراسة : محمد المنجى الميادى ، التعريب والتنسيق في الوطن العربى (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، 1980) .